أثر التقديم والتأخير في المعنى عند النحويين

لطفي عمر بن الشيخ أبوبكر

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

كلية الآداب جامعة حضرموت

أثر التقديم والتأخير في المعنى عند النحويين

ملخص البحث :

التقديم والتأخير في الكلام لا يرد اعتباطاً في النظم والتأليف، فالمتكلم إنما يقدم ويؤخر ليظهر معنىً في نفسه لا يمكن أن يظهر إذا جاء بالكلام على أصله دون تقديم أو تأخير، لذا جاءت هذه الدراسة لتبين أثر التقديم والتأخير في المعنى عند النحويين القدامى والمحدثين .

وعلى ما للتقديم والتأخير من أثر في المعنى نجد أنَّ القدماء قد حصروا عنايتهم بها، وكان عمدتهم في بيان سبب التقديم قولهم (قُدِّم للعناية به، ولأنَّ ذكره أهم)، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني الذي يعود له الفضل الأكبر في اكتشاف أسرار التقديم والتأخير .

وقد تتبعت الدراسة ظاهرة التقديم والتأخير عند القدماء في ثنايا كتبهم وبينت تفاوت فهمهم لها .

وبينت أن دراسة التقديم والتأخير مما يعين على فهم بعض أسرار القرآن الكريم وبيان معانيه، خلافاً لآراء بعض المحدثين الذين ينكرون أثر التقديم والتأخير في المعنى .

كما أوضحت موقع التقديم والتأخير في النظرية التحويلية التوليدية الحديثة لأن له أثراً في المعنى الدلالي للجملة.

متن البحث :

من المسلم به أن الكلام يتألف من كلمات لا يستطيع المتكلم أن ينطق بها دفعة واحدة، ولذا لابدّ عند التكلم أن يقدم بعضه ويؤخر بعضه الآخر، ويكتمل المعنى حين تأخذ الكلمة مكانها في الجملة، وقد تأخذ الكلمة موضعها الأصلي في التركيب، كأن يتلو الفاعل فعله، أو يقع المفعول به بعد الفعل والفاعل، أو يسبق المبتدأ خبره ... إلخ، وقد يُعدل عن هذا التركيب الأصلي، فيُقدَّم ما حقه التأخير وفقاً لما اقتضته قواعد اللغة لغرض معنوي يريده المتكلم؛ لأن الناظم أول ما يرتب المعاني في نفسه، ويعمل فكره فيها لتنسيق دلالتها، يقول عبد القاهر الجرجاني : « وأما نظم الكلم فليس الأمر

فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس »[1]، ويقول في موضع آخر : « فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق »[2] .

فالمعنى إذا كان مقدما في النفس تقدّم في الجملة، وقد انبرى البلاغيون والمفسرون لبيان معاني التقديم والتأخير وأغراضه، كما عالج النحويون أيضا هذه القضية وأولوها عنايتهم .

أثر التقديم والتأخير عند القدماء :

من أوائل من ذكر التقديم والتأخير الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ)، يقول سيبويه في باب (الابتداء): « زعم الخليل أنه يستقبح أن يقول " قائم زيد" وذاك إذا لم تجعل قائماً مقدماً مبنياً على المبتدأ .. وهذا التقديم عربي جيِّد وذلك قولك : تميمي أنا، ومَشنوءٌ من يشنؤك»[3]، فالتقديم عند الخليل هو على نية التأخير، إذ يبقى المقدَّم على حكمه الذي كان عليه قبل التقديم، ويرى الخليل أن تقديم الخبر في قولنا " قائم زيد" يبقى خبراً، كما في تقديم المفعول على الفاعل . هذا هو مراد الخليل ومن غير مراعاة ذلك يصبح الكلام قبيحاً « لأنه إمّا أن يؤدي إلى لبس، كما في تقديم المفعول حين يصبح فاعلاً أو يؤدي إلى المحال، كما في تقديم الخبر حيث يخبر عن النكرة بالمعرفة »[4] .

فالتقديم والتأخير عند الخليل لم يكن إلا في صورته اليسيرة، وذكره له ما هو إلا ملاحظة أسلوبية رآها عند دراسته للتراكيب النحوية في أساليب اللغة العربية.

---

[1] دلائل الإعجاز : ٤٠ .

[2] المرجع السابق : ٤٣ .

[3] الكتاب : ١٢٧/٢ .

[4] أثر النحاة في البحث البلاغي : ٥٨ .

ومن الذين تعرضوا للتقديم والتأخير يونس بن حبيب(ت ١٨٢هـ) ولكن من غير أن يقف على سرّه البلاغي، وقد ذكره في معرض حديثه عن جواب الشرط بعد الاستفهام، فهو يقول: « أإن تأتني آتيك، بالرفع، هو في نية التقديم ويقدِّره : آتيك إن تأتني »[٥] .

أما سيبويه(١٨٠هـ) فهو من أوائل من لفت الأنظار إلى معنى التقديم والتأخير وسرّه البلاغي، يقول في (باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول) : « فإن قدَّمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك : ضرب زيداً عبدُ الله ؛ لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مُقدماً، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخراً في اللفظ، فمن ثمّ كان حدّ اللفظ أن يكون فيه مقدما، وهو عربي جيّد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعاً يهمانهم ويعنيانهم »[٦].

فالتقديم عند سيبويه إنما يكون للعناية والاهتمام بالمقدّم، سواء تقدم المفعول به على الفاعل أم على الفعل والفاعل معاً .

كما يكون التقديم عنده للعناية بالمقدم في (باب كسا)، وما ينصب مفعولين ليس أصلهما مبتدأً وخبراً، يقول سيبويه : « وإن شئت قدمت وأخرت، فقلت : كُسي الثوبَ زيدٌ، وأُعطي المالَ عبدُ الله، كما قلت : ضرب زيداً عبدُ الله فالأمرُ في هذا كله في الفاعل »[٧] .

وإذا قُدم الظرف فهو مُخرَّجٌ على هذا المعنى أيضاً: « والتقديم ههنا والتأخير في ما يكون ظرفاً أو يكون اسما في العناية والاهتمام، مثله ما ذكرتُ لك في باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير »[٨] .

وينتقل سيبويه إلى سر بلاغي آخر يسببه التقديم والتأخير غير الذي ذكر من العناية والاهتمام، وهو إفادة المخاطب التنبيه، فهو يقول في هذا الصدد : « فإذا بنيت الفعل على الاسم قلت : زيد ضربته، فلزمته الهاء، وإنما تريد بقولك مبني عليه الفعل

---

[٥] إعراب القرآن المنسوب للزجاج : ٣/ ٧٨٢ .

[٦] الكتاب : ١/ ٣٤ .

[٧] المرجع السابق : ١/ ٤٢ .

[٨] المرجع السابق : ١/ ٥٦ .

أنه في موضع (منطلق) إذا قلت : عبد الله منطلقٌ، فهو في موضع هذا الذي بُني على الأول، وارتفع به، فإنما قلت عبد الله فنسبته (فنبهته) له، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء »[٩] .

وإن كان التقديم كما ذكر سيبويه يأتي لسر بلاغي ولحسن النظم فإنه قد يكون عنده سبباً في قبح الكلام، وإن كان موافقاً لقواعد النحو فهو يقول : « ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه، لأنه مستقيم ليس فيه نقض، فمن ذلك قول عمر بن أبي ربيعة :

صَدَدْتِ فأطْوَلْتِ الصُّدودَ وقَلَّما وصالٌ على طولِ الصُّدودِ يَدومُ[١٠]

وإنما الكلام : وقلَّ ما يدوم وصال »[١١] .

وفي الحديث عن همزة الاستفهام يشير إلى علاقة التقديم والتأخير بالهمزة، فهو يستحسن أن يلي المسؤول عنه الهمزة ويقدم على الفعل، ففي باب (أم إذا الكلام بها بمنزلة أيهما وأيهم)، يقول : « وذلك قولك : أزيدٌ عندك أم عمرٌو، وأزيداً لقيتَ أم بشراً ؟ فأنت الآن مُدَّعٍ أنَّ عنده أحدهما...واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسنُ، لأنك لا تسأله عن اللُّقَى، وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو، فبدأت بالاسم لأنك تقصد قصدَ أن يبين لك أيُّ الاسمين عنده، وجعلت الاسم الأخير عديلاً للأول، وصار الذي لا تسأل عنه بينهما، ولو قلت : ألقيتَ زيداً أم عمراً كان جائزاً حسناً .. وإنما كان تقديم الاسم ههنا أحسن ولم يجز الآخر، إلا أن يكون مؤخراً، لأنه قصد أحد الاسمين فبدأ بأحدهما »[١٢] .

ولم يكتف سيبويه بذلك بل يستطرد ليوضح لنا سر تقديم الفعل بعد همزة الاستفهام وما يتولد عنه من معان عند التقديم وتأخير الفعل جائز حسن عند سيبويه إذا كان هو المسؤول عنه، غير أنَّ تقديم الفعل أولى وأفضل وإن كان تأخير الفعل

---

[٩] المرجع السابق : ٨١/١ .

[١٠] الديوان : ٣٧٦، من الطويل، ومنسوب للمرار الأسدي في شرح سقط الزند ٤/ ١٦٦٠، والدرر اللوامع : ٢/ ١٠٧، والخزانة : ١/ ٢٤٥ .

[١١] الكتاب : ٣١/١ .

[١٢] المرجع السابق : ١٦٩/٣- ١٧٠ .

المسؤول عنه حسناً: « فتقول أضربت زيداً أم قتلتَه فالبدء بالفعل ههنا أحسن، لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدري أيهما كان ولا تسأل عن موضع أحدهما، فالبدء بالفعل ههنا أحسن كما كان البدء بالاسم ثَمَّ فيما ذكرنا أحسن»[١٣].

ثم يقول سيبويه في باب (أو) : « تقول ألقيت زيداً أو عمراً أو خالداً ... واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتأخير الاسم أحسن؛ لأنَّك إنما تسأل عن الفعل بمَنْ وقع ولو قلت: أزيداً لقيت أو عمراً أو خالداً، وأزيدٌ عندك وعمرو أو خالدٌ كان هذا في الجواز والحسن بمنزلة تأخير الاسم إذا أردت معنى أيهما»[١٤] .

فواضح إذن كيف يفرق سيبويه في التقديم والتأخير بعد الهمزة، إذ يكون المسؤول عنه هو الذي يأتي بعدها .

هذه هي أهم الملاحظات التي ذكرها سيبويه بخصوص التقديم والتأخير، ويبدو لنا أن سيبويه ما كان يقصد في ذلك أن يلفت الأنظار إلى بلاغة التقديم والتأخير أو بقية الفنون البلاغية الأخرى، إنما هي ملاحظات ذكرها في كتابه دون أن يقصد إلى ذلك قصداً. فقد كان همه الوقوف على نظم الكلام وتأليفه وتعرُّف مواطن الحسن والقبح فيه.

وذهب قسم من المحدثين إلى : « أسبقية سيبويه بوضع كثير من الإشارات التي تشكل معظم أبواب علم المعاني، وكثير من أبواب علم البيان، وصورتين من محسنات البديع ونظن أننا نكون بمنأى عن الاتهام إذا قلنا إنَّ سيبويه قد أسهم إسهاماً فاعلاً في وضع علم المعاني »[١٥]. على أني لم أجد في هذا الرأي ما يدعو إلى الاطمئنان إليه، لأن سيبويه ما كان ليقصد في ذلك سوى علم النحو والتعرف على واقع لغة العرب، وأجد نفسي أقف مع قول الدكتور أحمد مطلوب عندما قال : « إنّ سيبويه لم يكن إلا واحداً من الذين ذكروا بعض مسائل البلاغة بصورتها الساذجة أو لعل سيبويه عندما نثر

[١٣] الكتاب : ١٧١/٣

[١٤] المرجع السابق : ١٧٩.

[١٥] أثر النحاة في البحث البلاغي : ١٢٩ .

هذه المسائل لم يقصد إلى علم غير النحو، ولم يرَ علماً خاصاً هو علم البلاغة أو أحد فنونها الثلاثة »[١٦].

فالتقديم والتأخير ما هو إلا أسلوب من أساليب التعبير في اللغة العربية نقله سيبويه لبيان أثره وأهميته والتنبيه عليه.[١٧]

وقد بحث ابن جني (٣٩٥هـ) التقديم والتأخير في باب (شجاعة العربية) ما يجوز منه ومالا يجوز، وما يقبله القياس، وما يسهّله الاضطرار[١٨]، وقد وافق النحويين تماماً في معالجته هذه القضية في كتابه الخصائص، فلم يتعدّ النحو إلى البلاغة، فأخذ يتحدث عما يقبله القياس كتقديم المفعول به والظرف على الفاعل، وتقديمهما على الفعل، وكتقديم المستثنى على المستثنى منه، فلا يجوز المستثنى على الفعل الناصب له نحو :" إلا زيداً قام القوم " لأن القياس لا يقبل هذا التركيب، وعلة ذلك مضارعة الاستثناء البدل، فالبدل لا يتقدم على المبدل منه، كما يجوز تقديم خبر المبتدأ على المبتدأ، وخبر كان وأخواتها على أسمائها وعليها أيضاً، وتقديم المفعول لأجله على الفعل الناصب له نحو:" طمعاً في برك زرتك " في حين لا يجوز تقديم المفعول معه على الفعل نحو:" والطيالسةَ جاء البرد " لأن الواو هنا بمنزلة واو العطف، وهذا يقبح كقبح " وزيد قام عمرو"، كما يقبح تقديم التمييز، فلا يجيز " شحماً تفقأت" و"عرقاً تصببت" وقاس ذلك على الفاعل الذي لا يجوز تقديمه على فعله في مذهب البصريين، لأن التمييز هو الفاعل في المعنى، ولا يجوز كذلك تقديم نائب الفاعل على الفعل قياساً على الفاعل أيضاً، وقد وضع ابن جني قاعدة عامة مفادها : أنه ليس في الدنيا مرفوع يجوز تقديمه على رافعه مخالفاً في هذا مذهب الكوفيين الذين أجازوا تقديم الفاعل على فعله[١٩]. فأما خبر المبتدأ فلم يتقدم عنده على رافعه، لأن رافعه ليس المبتدأ وحده، إنما الرافع له المبتدأ والابتداء جميعاً، فلم يتقدم الخبر عليهما معاً وإنما تقدم

---

[١٦] البلاغة عند السكاكي : ٨٠ .

[١٧] ينظر : التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ١٣- ١٦ .

[١٨] ينظر : الخصائص :٢/ ٣٨٢ .

[١٩] ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري، المسألة ٨٥ : ٢/ ٦١٥ .مغني اللبيب: ٧٥٧ .

على أحدهما وهو المبتدأ، وهذا لا ينتقض، ويتابع ابن جني بيان ما يجوز وما لا يجوز في التقديم والتأخير[٢٠].

وهنا نرى ابن جني في سرده التقديم الواجب والجائز، لم يخرج عن قواعد النحو ليبين لنا المعنى الذي يفيده التقديم، فلا يهمه كما رأينا إلا القياس وصحته أو ضعفه أو فساده، وبيان العلة، ولا يتعدى ذلك إلى بحث المعنى الذي يتحصل بالتقديم والتأخير .

بل إن العناية والاهتمام بتقديم المفعول به التي رآها سيبويه لم يأخذ بها ابن جني وعدّه رأياً رآه سيبويه، فقال : « وإنما هو شيء رآه سيبويه واعتقده قولاً ولسنا نقلد سيبويه ولا غيره لهذه العلة ولا في غيرها، فإن الجواب في هذا حاضر عتيد والخطب فيه أيسر »[٢١].

فالتقديم عند ابن جني وأستاذه أبي علي الفارسي (٣٧٧هـ) ليس لعلة بلاغية كالاهتمام أو التنبيه « وذلك لأن المفعول قد شاع عندهم واطرد في مذاهبهم كثرة تقدمه على الفاعل، حتى دعا ذلك أبا علي إلى أن يقول إنَّ تقديم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه كما أنَّ تقديم الفاعل قسم أيضاً قائم برأسه، وإن كان تقديم الفاعل أكثر، وقد جاء به الاستعمال واسعاً، نحو قول الله عز وجل : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[٢٢] و ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾[٢٣] وفي كثير من شعر الشعراء والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر. فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له حتى إنه إذا أخر فموضعه التقديم»[٢٤]، ويشعر ابن جني أن كلامه يبدو غريباً للقارئ فيقول : « ولا تستنكر هذا الذي صورته لك ولا يجف عليك، فإنه مما تقبله هذه اللغة ولا تعافه ولا تتبشّعه »[٢٥].

---

[٢٠] ينظر : المرجع السابق : ٢/ ٣٨٢- ٣٩٠ .

[٢١] الخصائص : ١/ ٢٩٨ .

[٢٢] سورة فاطر : ٢٨ .

[٢٣] سورة التكاثر : ١.

[٢٤] الخصائص :١/ ٢٩٧ .

[٢٥] المرجع السابق الصفحة نفسها .

فالمفعول به عند ابن جني وأستاذه أبي علي ذو شأن في الجملة لا يقل عن شأن الفاعل، وإن الفعل إذا أسند إلى المفعول بدل الفاعل تتغير صورته قطعاً، ويفهم من كلام ابن جني أن العرب قد بنت أفعالاً على المفعول به دون الفاعل ولو بنت الفعل على الفاعل لم يعطِ المعنى المراد.

ولكن ابن جني في كتابه (المحتسب) ينهج النهج البلاغي الذي يهمّه المعنى، ويعنيه التقديم وبلاغته، بعيداً عن القياس والتعليل وذلك نراه في حديثه عن تقديم المفعول به، فإنه يركز على معنى التقديم، ويلح في التركيز حتى يقدم لنا كلاماً فصلاً يبين فيه مدى العناية بالمفعول به، ويحسن هنا إيراد كلام ابن جني في هذه القضية على طوله : « ينبغي أن يعلم ما أذكره هنا، وذلك أن أصل وضع المفعول أن يكون فضلة وبعد الفاعل " كضرب زيدٌ عمراً " فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل فقالوا: " ضرب عمراً زيدٌ " فإن إزدادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصب له فقالوا " عمراً ضرب زيدٌ "، فإن تظاهرت العناية به عقدوه على أنه ربّ الجملة، وتجاوزوا به حدّ كونه فضلة، فقالوا : " عمرٌ ضربه زيدٌ " فجاءوا به مجيئاً ينافي كونه فضلة، ثم زادوا على هذه الرتبة فقالوا :" عمروٌ ضرب زيد" فحذفوا ضميره ونووه، ولم ينصبوه على ظاهر أمره رغبةً به على صورة الفضلة، وتحامياً لنصبه الدّال على كون غيره صاحب الجملة، ثم إنهم لم يرضوا له بهذه المنزلة حتى صاغوا الفعل له وبنوه على أنه مخصوص به، وألغوا ذكر الفاعل مُظهراً أو مضمراً، فقالوا:" ضُرِبَ عمروٌ" فاطّرحِ ذكر الفاعل البتّة، بل أسندوا بعض الأفعال إلى المفعول دون الفاعل البتّة، مثل قولهم :"امتُقِع لونه " ولم يقولوا : امتَقَعَه كذا ... وهذا كله يدل على شدة عنايتهم بالفضلة؛ لأنها تجعل الجملة تابعة في المعنى لها، حتى إنها إذا لم تكن تابعة لها، وكان المفعول مقدماً منصوباً، فإنه لا يعدم دليل العناية به، وهو تقديمه اللفظ منصوباً، وهذه صورة انتصاب الفضلة، فقدّمه ليدل على قوة العناية به »[٢٦].

وتظهر قوة الحجة عند ابن جني واضحة في سرِّ تقديم المفعول به، فالعناية عند ابن جني تبدو في أربع صور :

[٢٦] المحتسب لابن جني: ج١: ٦٥- ٦٦ .

الأولى : تقديم المفعول به على الفاعل فقط .

الثانية: تقديمه منصوباً على الفعل .

الثالثة : تقديمه مرفوعاً على الفعل .

الرابعة : وتمثل أقوى مراتب العناية، حين بُنِيَ الفعل على أنه مخصوص بالمفعول به لخلو هذا الفعل من الضمير .

فابن جني يردد هذه العناية في مواضع مختلفة من كتابه (المحتسب) ليؤكد ما ذهب إليه في تقديم المفعول به والاهتمام به، وأثر ذلك في المعنى، حتى إن بناء الفعل للمجهول من مظاهر هذه العناية لما لهذه الصيغة من قيمة بلاغية : « ومن شدة قوة العناية بالمفعول أن جاءوا بأفعال مسندة إلى المفعول، ولم يذكروا الفاعل أصلاً، وهي نحو قولهم :" امتُقِع لون الرجل"، " وانقُطِع به "، " وجُنّ زيدٌ " ولم يقولوا :" امتَقَعَه، ولا انقَطَعَه ولا جَنَّه، ولهذا نظائر، فهذا كإسنادهم الفعل إلى الفاعل البتّة في مالا يتعدى نحو: " قام وقعد جعفر " »[٢٧]. فالمفعول به في هذه الصيغة هو المقصود وهو موضع الاهتمام والتركيز، ويفوق الاهتمام به أيّ عنصر من عناصر الجملة .

وابن جني لم يقف عند هذا الحد في بيان أهميّة التقديم وأثره في المعنى حتى ذهب إلى أن عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة له أثره البلاغي، وتلجأ إليه العرب بواقع من حسها اللغوي السليم، فهو لا يرى في هذا الأسلوب شذوذاً أو ضرورة مخالفاً من قال بذلك [٢٨]. فالمفعول به إذا قُدِّم كان ذلك للعناية والاهتمام بشأنه، وعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة يلفت الأنظار إلى هذه العناية، ولكنَّ ابن جني مسبوق إلى هذه اللفتة، فقد كان في رأيه هذا متأسياً بأبي الحسن الأخفش (ت٢١٥هـ)، جاء في شرح الكافية في النحو : « وقد جوّز الأخفش وتبعه ابن جني نحو: ضرب غُلامه زيداً، أي اتصال ضمير المفعول به بالفاعل مع تقدم الفاعل لشدّة اقتضاء الفعل للمفعول به كاقتضائه للفاعل واستشهد بقول الشاعر :

[٢٧] المرجع السابق: ١/ ١٣٥، ٢/ ٢٨٤ .

[٢٨] ينظر : الخصائص : ١/ ٢٩٤ .

جزى ربُّه عنّي عديَّ بن حاتم ❖ جزاءَ الكلاب العاوياتِ وقد فعل[٢٩]

وبقول آخر :

لمّا عصا أصحابُه مُصعَباً ❖ أدّى إليه الكيلَ صاع بصاع[٣٠].»[٣١].

أما عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧٤هـ) فالتقديم والتأخير عنده « باب من الأبواب التي تظهر بها مزيَّة الكلام ويعلو بها أسلوب على أسلوب ويبدو بها إعجاز القرآن»[٣٢]، وقد نبّه على مكانة التقديم والتأخير ووصفه « بأنه باب كثير القواعد جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة »[٣٣].

ويتضح من كلامه أن التقديم والتأخير يأتي في الكلام لعلة بلاغية، ويجعل القارئ يقف أمام عبارته تلك لينظر إلى الموضوع غير النظرة التي وجدها عند غيره من العلماء، فالتقديم والتأخير يأخذ عند عبد القاهر مكانة أسمى وبُعداً آخر إذ يؤدي وظيفةً مهمةً في سبك الكلام وفنون التصرف فيه .

وكان عبد القاهر ينظر إلى التقديم والتأخير من الوجهة التي تتفاضل فيها الفصاحة والوجهة التي يؤتى بها لتحسين الكلام سواء أكان شعراً أم كان نثراً، فيقول: « ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّمَ فيه شيء وحُوِّل اللفظ من مكان إلى مكان »[٣٤].

والتقديم والتأخير عنده على نوعين : تقديم على نية التأخير « وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه »[٣٥] وذلك مثل خبر المبتدأ في قولنا (منطلق زيد)، والمفعول إذا قُدِّم على الفاعل مثل (ضرب عمراً زيدٌ) إذ إنهما لم

---

[٢٩] البيت من الطويل، وهو للنابغة الذبياني في ديوانه : ١٩١، والخصائص :١/ ٢٩٤، وله أو لأبي الأسود الدؤلي في خزانة الأدب : ١/ ٢٧٨، ٢٧٧، ٢٨٧، والدرر: ١/ ٢١٧، وللنابغة أو لأبي الأسود أو لعبد الله بن همارق في شرح التصريح : ١/ ٢٨٣، وبلا نسبة في أوضح المسالك : ٢/ ١٢٥.

[٣٠] البيت من السريع، وهو للسفاح بن بكير في خزانة الأدب :١/ ٢٩٠، ٢٨٩، وبلا نسبة في لسان العرب :١٥/ ١٤٨ (فجا) .

[٣١] شرح الكافية في النحو: ١/ ٧٢ .

[٣٢] عبد القاهر والبلاغة العربية : ١٣٩ .

[٣٣] دلائل الإعجاز : ١٠٦ .

[٣٤] المرجع السابق: الصفحة نفسها .

[٣٥] المرجع السابق :الصفحة نفسها

يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من حكمهما الإعرابي، وتقديم على نية التأخير « ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم وتجعل له باباً غير بابه وإعراباً غير إعرابه»[٣٦] مثل (زيدٌ المنطلق) و(المنطلق زيدٌ) و(ضربت زيداً) و(زيدٌ ضربت) .

ويتابع الجرجاني دراسته لموضوع التقديم والتأخير بشكل لافت للنظر، إذ لم يترك للدارسين من بعده إضافات تذكر، معللاً رأيه بالشواهد القرآنية والأبيات الشعرية فيجعل الدارس يطمئنُّ إلى عمق تفكيره ونفاذ بصيرته، فكل من جاء بعده اعتمد على شواهده وآرائه .

وقد تكلم عن التقديم بعد همزة الاستفهام [٣٧]، وتقديم المسند إليه في النفي [٣٨] والإثبات [٣٩] وتقديم النكرة[٤٠] .

ويضع عبد القاهر أمامنا أمراً مهما في فائدة التقديم قد لا نجدها في التأخير فيقول : « فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلا على الفعل في كثير من الكلام انه قد اختص لفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال »[٤١] .

ويفهم من كلامه أن التقديم والتأخير في الكلام لابد أن يأتي لفائدة تكسب الكلام حسناً وقوةً، ويعيب على من ينكر فائدتهما في الأسلوب فيقول : « ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء، أن يدّعي أنه للفائدة في بعضها وللتصرف في اللفظ من غير معنى في بعض فمما ينبغي أن يُرغب عن القول فيه »[٤٢] .

ويتحدث عبد القاهر عن الفروق في الخبر، ولا يطمئن إلى قول النحاة بجواز التقديم والتأخير في الاسمين المعرفين إذ لا مبين للمبتدأ من الخبر مثل (زيدٌ أخوك)[٤٣]، إذ لابد

---

[٣٦] المرجع السابق :الصفحة نفسها

[٣٧] ينظر :دلائل الإعجاز : ١١١

[٣٨] ينظر: المرجع السابق : ١٢٤.

[٣٩] ينظر: المرجع السابق : ١٢٨

[٤٠] ينظر: المرجع السابق : ١٤٢

[٤١] المرجع السابق : ١١٠ .

[٤٢] المرجع السابق : ١١١.

[٤٣] ينظر : شرح ابن عقيل :١/ ٢٣٢ .

عنده من اختلاف في المعنى يسببه التقديم والتأخير « فإذا قلت (زيدٌ أخوك) كنت قد أثبت ب(أخوك) معنى لزيد، وإذا قدمت وأخرت فقلت (أخوك زيدٌ) وجب أن تكون مُثبتا بزيد معنىً لأخوك »[٤٤].

وبعد أن بين الجرجاني هذه الفروق واطمأنَّ إلى صحة دعواه قال : « وإلا كان تسميتك له الآن مبتدأ وإذ ذاك خبراً تغييراً للاسم عليه من غير معنى »[٤٥].

ونود أن نذكر شاهداً من الشواهد القرآنية التي ذكرها عبد القاهر لنبين رأيه في كيفية حصول المعنى المستفاد من التقديم والتأخير، ففي قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾[٤٦]، يقول : « بيانه أنا وإن كنّا نرى جملة المعنى ومحصوله بأنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم فإن تقديم الشركاء، يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن »[٤٧].

وتبدو نظرة عبد القاهر الجرجاني في تقديم وتأخير المفاعيل واضحة جليّة فالتقديم والتأخير أحدث تحولاً في تغيير معنى الآية الكريمة .

وفي معرض حديثه عن مسائل الاستفهام فرّق الجرجاني بين تقديم الفعل وتقديم الاسم عقب الهمزة في الاستفهام الحقيقي ويتلخص في أنّ الذي يلي الهمزة هو المشكوك فيه، والمسؤول عنه، فالابتداء بالفعل في قولنا (أفعلت) يعني الشك بالفعل أما قولنا (أأنت فعلت ؟) كان الشك في الفاعل .[٤٨]

وقد يخرج الاستفهام عن طريق الهمزة إلى طلب الحقيقة والتقرير من المخاطب، فإذا جاء بعدها الفعل كان السؤال للإقرار بحدوثه أو نفيه، وإن جاء بعدها الاسم

---

[٤٤] دلائل الإعجاز :١٨٩- ١٩٠ .

[٤٥] المرجع السابق : ١٩٠ .

[٤٦] الأنعام : من الآية ١٠٠ وتمامها (وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون)

[٤٧] دلائل الإعجاز :٢٨٦ .

[٤٨] ينظر : دلائل الإعجاز : ١١١

كان السؤال عن اعتراف الفاعل.[٤٩] كقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[٥٠].

ويستطرد عبد القاهر في دراسته للتقديم والتأخير مبيناً ما يحدثه من جمال في النص الأدبي، فلم يعد عنده مقصوراً على نظام الجملة الواحدة، بل يتعدى ذلك إلى البيت الشعري والقصيدة ففي قول الشاعر :

سألتْ عليه شِعابُ الحيِّ حِينَ دعَا أنصارَهُ بوجوهٍ كالدنانيرِ[٥١]

يقول : « فإنك ترى في هذه الاستعارة، على لطفها وغرابتها إنما تمَّ لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد مُلحت ولُطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها »[٥٢].

فالتقديم والتأخير قد مكن من الاستعارة في البيت الشعري وجعلها ذات مأخذ في النفس، وفي ذلك يقول عبد القاهر : « فاعمد إلى الجارين والظرف فأزل كلا منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل (سألت شعابُ الحيِّ بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره) ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة »[٥٣]، وهذا بحق التفاتة من عبد القاهر في هذا المجال، فالشاعر اضطر إلى التقديم والتأخير ليستقيم له المعنى، وليستقيم له إبراز الاستعارة على أجمل صورة وأبهى حسن لتتمكن من نفس السامع .

ويُدخِل الجرجاني موضوع التقديم والتأخير في مجال النقد كذلك، ويسوق أبيات البحتري لينظر ما أحدث التقديم والتأخير والحذف والإضمار فيها حتى أعجبت السامعين :

---

[٤٩] ينظر : المرجع السابق : ١١٣

[٥٠] الأنبياء : ٦٢

[٥١] من البسيط، قائله سبع بن الخصيم التميمي، من بطن منهم يقال له بنو رفاعة، ينظر: المؤتلف والمختلف : ١٥٩- ١٦٠ .

[٥٢] دلائل الإعجاز : ٩٩ .

[٥٣] المرجع السابق.

بَلَونا ضَرَائِبَ مَنْ قَدْ نَـــرى فَمَا إنْ رَأيْنَا لِفَتـحٍ ضَرِيبَـــا

هُوَ المـرءُ أبْدَتْ لَهُ الحَــادِثا تُ عَزْمـاً وَشيكاً ورأياً صليبـــا

تَنَقَّـلَ فِي خُلُقَيْ سُـــــؤْدَد سَمَاحاً مُرجَّى وبَـأساً مَهِيبَـا

فَكالسَّيْف إن جِئتـهُ صَارِخَاً وكَالبَحـرِ إنْ جِئتَهُ مُسْتَثِيْبا[٥٤]

فقال عبد القاهر معلقاً على هذه الأبيات : « فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازاً في نفسك، فعد فانظر في السبب واستقص في النظرة، فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدَّم وأخَّر، وعرَّف وذكَّر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخَّى على الجملة وجهاً من الوجوه الذي يقتضيها (علم النحو) فأصاب في ذلك كله، ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة »[٥٥] .

ويرى شوقي ضيف أن نظرة عبد القاهر إلى هذه الأبيات كانت بحدود المؤثرات النحوية التي تقف عند ظاهرة التركيب اللغوي ولا تكشف عن الموسيقى الناتجة عن هذا التركيب، فقال : « يبدي عبد القاهر ويعيد في هذا المقياس الذي اتخذه من النحو، ولكن فاته أنّ علم النحو لا يكشف (الموسيقى الخارجية) موسيقى العروض فأولى به ألاَّ يكشف (الموسيقى الداخلية) موسيقى النظم وهي لا ترتبط به ولا بقواعده ولم ينفع عبد القاهر ما اعتمد عليه من فلسفة وتفكير في فهم العبارات والأساليب اللغوية وبذلك فشل علم النحو عنده في تحليل هذا الجانب »[٥٦] .

وربما يكون شوقي ضيف متأثراً بما قاله الباقلاني في البحتري بأنه (كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقداً شديدا)[٥٧]، وكذلك رأي ابن الأثير حيث قال في صفة تخيُّر البحتري للألفاظ (كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي)[٥٨] .

---

[٥٤] من المتقارب، ديوان البحتري :١٥١/١ .

[٥٥] دلائل الإعجاز : ٨٥ .

[٥٦] الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٧٩ .

[٥٧] ينظر إعجاز القرآن : ١٠٦، والفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٨١

[٥٨] ينظر : المثل السائر : ١٠٦، والفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٨٠

من هذا الجانب أراد شوقي ضيف من عبد القاهر أن يقول كلمته في جرس اللفظ وتألقه والدقة في اختيار الكلمات وترتيبها كما كان يهتم بذلك العباسيون (وجعلوه محور الفصاحة والبلاغة)[٥٩].

والذي نراه أن اهتمام عبد القاهر كان منصبا على إثبات نظرية النظم التي يرى عبد القاهر أن القرآن معجز من جهتها، فليس من همه الحديث عن الموسيقى الداخلية، فحديثه عن النظم الذي « هو الوجه الوحيد الذي حصل به الإعجاز »[٦٠]، جعله لا يلتفت إلى دراسة (الموسيقى الداخلية) وأثرها في النص .[٦١]

وعبد القاهر يعترف بأسبقية سيبويه إلى معنى بناء الفعل على الاسم حين يذكر قول الشاعر :

هُمُ يفرشون اللَّبدَ كلَّ طِمِرَّةٍ ❖ وأجْرَدَ سبَّاحٍ يَبُذُّ المُغالِبَا[٦٢]

يقول الجرجاني : « إنَّه بدأ بذكرهم لينبّه السامع لهم، ويُعلِم بَدِيًّا (أولاً وابتداءً) قصده إليهم بما في نفسه من الصفة، ليمنعه بذلك من الشك، ومن توهم أن يكون قد وضعهم بصفة ليست هي لهم »[٦٣]، وبعد ذلك يشير إلى سيبويه بقوله : « وهذا الذي ذكرت من أنَّ تقديم ذكر المحدّث عنه يفيد التنبيه له قد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدّم فرفع بالابتداء، وبني الفعل الناصب كان له عليه[٦٤]،وعُدِّي إلى ضميره فشغل به، كقولنا في، " ضربت عبدَ الله "، " عبدَ الله ضربته "، فقال : وإنما قلت " عبدَ الله " فنبّهته له، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء»[٦٥] .

ولكن عبد القاهر الجرجاني يأخذ على العلماء اكتفاءهم بتفسير المقدّم للأهمية والاعتناء، بل لابد من تفسير هذه الأهمية وبيان سببها، يقول الجرجاني : « وقد وقع

---

[٥٩] ينظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٨٠ .

[٦٠] تطور دراسات إعجاز القرآن وأثره في البلاغة العربية : ٢٨٣ .

[٦١] ينظر : التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ٣٦ – ٣٨ .

[٦٢] البيت من الطويل، للمُعدِّل بن عبد الله الليثي في شرح الحماسة للمرزوقي : ١٧٦٤.

[٦٣] المرجع السابق : ١٠٠ .

[٦٤] أي بني الفعل الذي هو ناصب له عليه

[٦٥] دلائل الإعجاز : ١٠١ .

في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : إنه قُدِّم للعناية، ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، ولم كان أهم ؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهوّنوا الخطب فيه حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف، ولم ترَ ظنّاً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه»[٦٦] .

وقال أيضاً : « واعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول : كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم، ولم يذكر في ذلك مثالاً»[٦٧].

فعبد القاهر أكسب التقديم والتأخير نظرة جديدة وبُعداً أسمى، وحوَّله من الدرس النحوي إلى الدرس البلاغي، وشمل عنده وحدة الموضوع، بعد أن كان يُدرس بصورة متفرقة في كتب الذين سبقوه، أو كان ينظر إليه على أساس أنه يؤدي إلى التعقيد المعنوي للكلام .

أما الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) فنظرته للتقديم والتأخير تتسم بالتأني والتعليل والتحليل الفني، فلا تكاد تمر على آية كريمة تشتمل على التقديم والتأخير إلا ويدلي برأيه فيها شارحاً وموضحاً، فقد تحدث عن تقديم المسند إليه ومتعلقات الفعل والنكرة وغير ذلك .

ففي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٦٨]، قال الزمخشري : « فإن قلت، كيف ابتدأ قوله : الله يستهزئ بهم ولم يعطف على كلام قبله : قلت هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أنَّ الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء ولا يقربه في مقابلته لما ينزل

[٦٦] المرجع السابق : ٨٥ .

[٦٧] المرجع السابق : ٨٤.

[٦٨] البقرة : ١٥ .

بهم من النكال ويحلّ بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاما للمؤمنين»[٦٩].

وفي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٧٠]، يقول الزمخشري : « هو للتخصيص والتأكيد وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين، وقيل معنى التخصيص في هو أن ذلك ليس إلى رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ وإنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها، فاقصدوه بها ووجهوها إليه »[٧١] .

وتظهر براعة الزمخشري في تقديم الصلة وتأخيرها ليستخرج المعاني المتوخاة من التقديم والتأخير ففي قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٧٢]، قال: « فإن قلت لم أخرت الصلة في قوله (وهو أهون عليه) وقدمت في قوله (هو عليّ هيّن) [٧٣]، قلت هناك قصد الاختصاص وهو محزّة، فقيل (هو عليّ هيّن) وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين همّ[٧٤] وعاقر، وأما هنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قُدمت الصلة لتغير المعنى »[٧٥] .

وقد علق أحمد بن المنير (ت ٦٨٣ هـ) على قول الزمخشري بقوله : « كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التّبر لا بالحبر »[٧٦].

---

[٦٩] الكشاف : ١/ ٥١ .

[٧٠] التوبة : ١٠٤ .

[٧١] الكشاف : ٢١٢، ٢١٣ .

[٧٢] الروم : ٢٧

[٧٣] مريم : ٩ وتمامها (قال كذلك قال ربك هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا)

[٧٤] الهم : الشيخ الفاني : ينظر : تهذيب اللغة : ٥/ ٣٨ .

[٧٥] الكشاف : ٣/ ٢٢٠ .

[٧٦] حاشية الكشاف : ٣: ٢٢٠ .

أما تقديم وتأخير الظرف فقد تكلم عليه كثيرا وكان التقديم عنده يدل على الاختصاص كما في قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٧٧] وفي قوله تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[٧٨].

وتكلم الزمخشري عن تقديم الظرف وتأخيره مبيناً السر البلاغي في التقديم ففي قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٧٩] قال: « فإن قلت : فهلا قدّم الظرف على الريب كما قدّم الغول في قوله تعالى : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ ﴾[٨٠]، قلت لأن القصد في إيلاء حرف النفي إثبات أنه حق وصدق لا باطل وكّذب كما كان المشركون يدعونه)[٨١] .

وفي قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[٨٢]، قال الزمخشري : « فإن قلت لم قال (لتركبوا منها) ولتبلغوا عليها ولم يقل (تأكلوا منها) ولتصلوا إلى منافع؟ أو هلا قال : منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم ؟ قلت في الركوب : الركوب في الحج والغزو وفي بلوغ الحاجة والهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم وهذه الأغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها، ومعنى قوله ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[٨٣]وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ولكن عليها وعلى الفلك وفي البر والبحر»[٨٤].

ولم يتفق أبو حيان (ت٧٤٥هـ) مع الزمخشري في معنى تأخير الظرف وتقديمه، فقد ناقشه في قوله تعالى (لا ريب فيه) بقوله: « وقد انتقل الزمخشري من دعوى

---

[٧٧] التغابن : ١

[٧٨] الغاشية : ٢٥، ٢٦ .

[٧٩] البقرة : ٢ .

[٨٠] الصافات : ٤٧ وتمامها (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون)

[٨١] الكشاف ١: ٢٧ .

[٨٢] غافر : ٧٩ .

[٨٣] المؤمن : ٨٠ وتمامها (ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون) .

[٨٤] الكشاف / ٤: ١٤١- ١٤٢ .

الاختصاص بتقديم المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر ولا نعلم أحداً يعرف (ليس في الدار رجل) و(ليس رجل في الدار) وعلى ما ذكر من أن خمر الجنة لا يغتال »[٨٥].

ويبدو كلام أبي حيان غريبا بصدد تأخير الظرف وتقديمه، فقد صرح عبد القاهر الجرجاني بفائدة الفرق بين التقديم والتأخير بقوله : « فمتى ثبت أن في تقديم المفعول مثلا على الفعل في كثير من الكلام، أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة في التأخير فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال »[٨٦].

فالفرق واضح من سياق الآية الكريمة ولو قدّم الظرف لتغير المعنى ودلّ أن كتبا أخرى فيها ريب، ومن جهة أخرى صرّح قسم من أئمة [٨٧] التفسير بالمعنى الذي قال به الزمخشري، فلا يعدو أن يكون كلام أبي حيان سوى تعصب على الزمخشري لا مسوّغ له .

وقد تحدث الزمخشري عن تقديم المفاعيل ففي قوله تعالى:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٨٨]، قال الزمخشري : « والمعنى نخصك بالعبادة ونحصك بطلب المعونة »[٨٩].

وفي قوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[٩٠]، قال : « ثم لا تصلوه إلا الجحيم وهي النار العظمى ... وتقديم السلسلة على السلك مثله في الجحيم»[٩١]، ففي هذا النوع من التقديم الذي ذكره الزمخشري يفهم منه فائدة الاختصاص، وقد رفض أبو حيان رأي الزمخشري في تقديم المفعول المفيد للاختصاص، وعدها (دعوى ادعى بها الزمخشري) إنما هو للاهتمام كما قال سيبويه، فقال : « التقديم عنده (أي الزمخشري) يوجب الاختصاص وليس كما زعم : قال سيبويه وقد تكلم على (ضربت زيداً) ما نصه : وإذا قدمت الاسم فهو عربي جيد،

---

[٨٥] البحر المحيط : ١/ ٣٧ .

[٨٦] دلائل الإعجاز : ١١٠ .

[٨٧] ينظر على سبيل المثال : تفسير النسفي : ١/ ٩، تفسير أبي السعود : ١/ ١٩ .

[٨٨] الفاتحة : ٥

[٨٩] الكشاف :١/ ١١ .

[٩٠] الحاقة : ٣٠، ٣١.

[٩١] الكشاف : ٣/ ٢٦٥ .

وذلك قولك (زيداً ضربت) والاهتمام والعناية في التقديم والتأخير سواء) »[٩٢]، وقال أيضاً : « فالتقديم عنده إنما هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول »[٩٣]، وأورد أبو حيان في معرض رده على الزمخشري قول الأعرابي الذي سبّ صاحبه فأعرض عنه وقال :(إياك أعني، فقال له : وعنك أعرض، فقدما الأهم) .[٩٤]

والحجة التي أقامها أبو حيان في رفض مبدأ الزمخشري، ربما تكون بعيدة عن واقع أسرار التقديم والتأخير، إذ كثيرا ما يقدم المفعول به في القران الكريم دالا على الاختصاص، وأما قصة الأعرابي التي ذكرها فلا يفهم التقديم فيها إلا بمعنى الاختصاص، حيث خصّ كل منهما صاحبه بالحديث، ثم إن التمسك بقول سيبويه لا يعني أن سيبويه لا يقول بالاختصاص أو يرفضه، فقد كان سيبويه في وقت يهتم بدراسة أسلوب العرب ووضع القواعد النحوية والتعرف على صياغة الجملة، دون النظر إلى أسرار التقديم بصورة مفصلة، كما إنّ الزمخشري لا يرفض التقديم لأجل العناية والاهتمام كقوله تعالى : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾[٩٥] فكان تعليق الزمخشري على الآية المذكورة « معناه : أفغير الله أعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون- استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك »[٩٦] .

ويظهر أن أبا حيان ما كان يأخذ بالتقديم المفيد للاختصاص بل كان التقديم عنده للعناية والاهتمام وقد ردّ على الزمخشري في مواضع [٩٧] .

ويعلل أحد الدارسين أسباب تلك المنافرة – وإن كانا في عصرين مختلفين – بما معناه : أن كلا الرجلين ألفا في التفسير، وقد بلغ الكشاف عند الناس ما لم يكد يبلغه تفسير ثم جاء أبو حيان فأودع في تفسيره كل ما عنده وأراد أن يعلو به عليه .[٩٨]

---

[٩٢] البحر المحيط : ١٦/١ .

[٩٣] المرجع السابق : ١٦/١ .

[٩٤] ينظر : البحر المحيط : ٢٤/١ .

[٩٥] الزمر : ٦٤ .

[٩٦] الكشاف : ٣/ ٤٠٧ .

[٩٧] ينظر : البحر المحيط : ١٦/١، ١٧٦/٤، ٣٧٩، ٤٢٦، ٧/ ٤٢، ٨/ ٣٢٥ .

[٩٨] ينظر : الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري : ٧٧، والتقديم والتأخير في القرآن الكريم :٤٥- ٤٨ .

ويرى الباحث أن أهم سبب وراء مخالفة أبي حيان للزمخشري في تلك الإفادة هو أنها دلالة بلاغية ذوقية سياقية، وليست حكماً نحوياً قطعياً لازما[٩٩] .

ويرى ابن الحاجب (ت٦٤٦هـ) أن التقديم يكون للأهمية، ولكنّ إفادته للاختصاص أولى، فقال : « الأولى أن يقال أنه يفيد القصر كقوله تعالى : ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾[١٠٠] »[١٠١].

أثر التقديم والتأخير عند المحدثين :

تناول كثير من المحدثين ظاهرة التقديم والتأخير وعلاقتها بالمعنى وعدوها (عدولاً عن الأصل) . يقول فاضل السامرائي :« وقد جعل النحاة رتبا بعضها أسبق من بعض، فإن جئت بالكلام على الأصل لم يكن من باب التقديم والتأخير، وإن وضعت الكلمة في غير مرتبتها دخلت في باب التقديم والتأخير وهذا هو الأصل في الكلام العربي، فالتقديم إما أن يكون بحسب الأصل أو بالعدول عن الأصل للعناية والاهتمام»[١٠٢] .

فالكلام عندهم يعبر عن المعاني، ولابد من أن ينتظم على صورة مخصوصة، للوصول إلى المعنى المفيد، والأصل أن يكون هناك رتبة بين الألفاظ، وهذه الرتبة قد تكون محفوظة أو غير محفوظة، قابلة للتقديم والتأخير وذلك بحسب المعنى المراد إيصاله، وعدم حفظها يعني أن المعنى معها لا يدخله الغموض أو اللبس، بل على العكس، فقد يستغل المتكلم حرية الرتبة من أجل التعبير عن معانٍ لا تعبر عنها الرتبة المحفوظة، وقد يعرض لهذه الرتبة ما يقيدها من أجل المعنى، ولهذا نجد النحاة أحياناً ينصّون على ضرورة حفظ الرتبة إذا دعت لذلك ضرورة تركيبية مثلا ويؤدي عدم حفظها إلى الغموض والالتباس .[١٠٣]

---

[٩٩] ينظر : (إفادة تقديم ما حقه التأخير للاختصاص بين الزمخشري وأبي حيان): مجلة جامعة القصيم للعلوم الشرعية، المجلد (٥)، العدد (١) .

[١٠٠] سورة الزمر : ٦٦

[١٠١] الكافية في النحو لابن الحاجب : ٢/ ١٦ .

[١٠٢] الجملة العربية تأليفها وأقسامها : ٣٧.

[١٠٣] ينظر : البيان في روائع القرآن :. تمام حسان : ٢٧٧، وبناء الجملة العربية :. محمد حماسة عبد اللطيف : ٧٩ .

وقد تكون الرتبة محفوظة، وحفظها يعني أن الخروج عنها يهدد بضياع المعنى، وقد يخرج عن هذه الرتبة بشرط وضوح المعنى، وهو ما يسميه تمام حسان (الترخُّص)[١٠٤] .

يقول تمام حسان : « العدول عن الرتبة، عدم مراعاتها، بتقديم ما رتبته التأخير أو العكس، وتسمى الرتبة في هذه الحالة (رتبة مشوشة) »[١٠٥] أي متداخلة، وذلك كقولنا: (زيداً رأيتُ) فالأصل تقدم الفعل، فالفاعل، فالمفعول، ولكن عُدل عن الأصل من أجل الأهمية .

« ويمكن العدول عن أصل الرتبة بالتقديم والتأخير، وهذا العدول إما أن يكون مطّرد أو غير مطرد، فإن كان غير مُطّرد فالنحاة يسمونه شاذا أو ضرورة أو خطأ »[١٠٦]، وذلك كقول الشاعر[١٠٧] :

عليكِ ورحمة الله السلامُ

فالقاعدة العامة تنص على حفظ الرتبة بين المعطوف والمعطوف عليه ولكن عُدل عن الأصل للضرورة.

« أما إذا كان العدول مطرداً فإنه عندئذٍ يخضع للاعتبارات الآتية : القاعدة، والخضوع للقاعدة التي يتم العدول في ضوئها، والاحتكام العام لصناعة النحو، كما يبدو من خلال قواعد التوجيه »[١٠٨].

وذلك كتقديم المفعول على الفاعل، فعملية التقديم والتأخير تتم من أجل الفائدة، أو من أجل هدف معين، بناء على قاعدة فرعية على الأصل، على أن لا يتعارض العدول مع قواعد التوجيه التي تحكم النحو العربي، كأن يقال مثلاً (لا عبرة بالتقديم إذا كان في نية التأخير)[١٠٩] .

---

[١٠٤] ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٣٦ .

[١٠٥] البيان في روائع القرآن : ٣٧٨ .

[١٠٦] الأصول : تمام حسان : ١٤٨ .

[١٠٧] عجز بيت وتمامه : أَلاَ يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ ... عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ السَّلاَمُ

وهو للأحوص، ينظر : الخصائص :٣٨٦/٢، الجمل للزجاجي : ١٥٩.

[١٠٨] الأصول : تمام حسان : ١٤٨.

[١٠٩] ينظر : الأصول : ٢٢٦، دور الرتبة في الظاهرة النحوية : ١٠٥ – ١٠٦ .

أما خليل عمايرة فهو ممن تأثروا بالفكر اللغوي عند تشومسكي، وقد انحصر تأثره في فكرتين هما : الجملة التوليدية والجملة التحويلية وفكرة عناصر التحويل ويعد من أبرز رواد النظرية التوليدية التحويلية .[١١٠]وهي نظرية تقوم على أن لكل جملة مستويين من الأبنية : أحدهما باطن (بنية عميقة) وهي التي تعبر عن الفكر، وهو المعنى المجرّد في الذهن، والآخر ظاهر (بنية سطحية) وهي تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلم ليعبّر بها عن المعنى الموجود في الذهن، وهي تمثل الجانب الصوتي والصرفي، وهذه البنية لابد منها للوصول إلى المعنى العميق .

وأرى أننا إذا نظرن إلى اللغة في ضوء هذين المستويين نجد أن فكرتهما موجودة مسبقا منذ القدم عن اللغويين العرب، فقد دلت تطبيقاتهم النحوية على وجود مثل هذه النظريات، ويكفي لتأكيد ذلك أن ننظر في باب التمييز، وما اشتمل عليه هذا الباب من تحويلات كثيرة، فسيبويه مثلا يرى أن (امتلأت ماءً) و(تفقأت شحماً) أصلهما (امتلأت من الماء) وتفقأت من الشحم)، وهذا يعني أن سيبويه لا يقف عند ظاهر اللفظ، أو بلغة التحويليين لا يقف عند البنية السطحية للجملة، بل يرى لها أصلاً عميقاً يختفي وراءها، ويعاد توزيع الجملة انطلاقا منه على مستوى السطح، أو الظاهر في مواقع لم تكن لها في حالة الأصل .[١١١]

يرى عمايرة أن التقديم والتأخير (الترتيب) من أبرز عناصر التحويل وأكثرها وضوحاً وهو نقل مورفيم (مبنى صرفي) من موقع أصل له إلى موقع جديد، مغيراً بذلك نمط الجملة، ناقلاً معناها إلى معنى جديد، تربطه بالمعنى الأول رابطة واضحة، وهو عنصر من عناصر التحويل، فجملة (أكرمَ خالدٌ علياً) جملة توليدية فعلية، لا تركيز فيها على أي جزء من أجزاء المعنى، والهدف منها الإخبار لا غير، ولكن المتكلم إذا أراد أن ينقل الخبر بتركيز على جزء من أجزائه قدّمه اعتناءً واهتماماً به فتحولت الجملة وأصبحت تحويلية .[١١٢]

---

[١١٠] ينظر : ينظر :في نحو اللغة وتراكيبها : د خليل عمايرة : ٤٥- ٦٠، النحو العربي والدرس الحديث : د عبده الراجحي : ١٢٤ – ١٢٦، الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية : مشيل زكريا :٩- ٢٠ .

[١١١] ينظر : الرتبة النحوية في الجملة العربية المعاصرة، د. إبراهيم الخلفات : ٦٠ .

[١١٢] ينظر :في نحو اللغة وتراكيبها : ٨٩ .

فالتقديم والتأخير في النظرية التحويلية التوليدية له أثره في المعنى الدلالي للجملة، إذ ينقل الجملة من معناها الأصل، فالمقدم مؤكد بالرتبة، وقد أدرك نحاتنا القدماء هذه الظاهرة وأولوها عنايتهم، يقول الدكتور عمايرة : « فالتقديم والتأخير عند علمائنا من السلف الصالح يكون لأمر يتعلق بالبنية الداخلية، المرتبطة بالمعنى في ذهن المتكلم »[١١٣] .

أما إبراهيم أنيس فقد رفض أن يكون للتقديم أثر في المعنى، وحمل على سيبويه، وعلى عبد القاهر الجرجاني بقوله : « وليس يشفع في انحراف الفاعل عن موضعه، أو المفعول عن موضعه ما ساقه سيبويه من حديث عن العناية والاهتمام، إذ كما قال الجرجاني لم يذكر في ذلك مثالاً . كذلك لا يشفع في هذا الانحراف فلسفة عبد القاهر حين أراد توضيح معنى الاهتمام بعبارته المشهورة (قتل الخارجيَّ زيد)!! »[١١٤].

واللجوء إلى التقديم عنده في النثر ليس من الأساليب الصحيحة، ولكنه رخصة غير مقبولة، إلا لحاجة ملحّة في النثر، مقبولة في الشعر : « فما قاله النحاة من جواز تقديم المفعول على فاعله حين يؤمَن اللبس، لا مبرر له من أساليب صحيحة، ولا يعدو أن يكون رخصة منَّ بها علينا النحاة، دون حاجة ملحّة إليها، غير أنا قد نقبلها في الشعر، وذلك لأن للشعر أسلوبه الخاص »[١١٥] .

أما ما جاء في القرآن الكريم من تقديم للمفعول به على الفاعل عنده، فإنما هو رعاية للفاصلة القرآنية ففي قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾[١١٦]، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾[١١٧] . يقول : « ولا نجد عنتاً أو مشقة حين نذكر أن نظام الفواصل القرآنية، والحرص على موسيقاها هو الذي تطلّب تأخير الفاعل في

[١١٣] المرجع السابق : ٩٣ .

[١١٤] من أسرار اللغة : ٢٤٤.

[١١٥] المرجع السابق الصفحة نفسها .

[١١٦] سورة طه :٦٧ .

[١١٧] سورة الحجر : ٦١ .

الآية الأولى، فارجع إلى ما اكتنفها من آيات في سورة (طه)، وكذلك في الآية الثانية – نلحظ أن نظام الفواصل هو الذي حتّم تقديم المفعول على الفاعل »[118].

كما استهجن إبراهيم تصرف النحاة في تقديم الحال وتأخيرها، لأنه يؤدي إلى فوضى لا تقبلها أيّة لغة من اللغات، فكيف إذا كان ذلك في اللغة العربية التي اتسمت بالدقة والنظام ؟ إذ يقول : « لا يرى النحاة غضاضة من تقديم الحال أو تأخيرها في غير هذين الأسلوبين- أسلوب الإضافة، مثل : " أعجبني وجه هند مسفرة "، وأسلوب الحصر، نحو قوله تعالى : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [119]، بل يفهم من كلامهم أنَّ أي تركيب من تراكيب التقديم والتأخير في الحال، جائز لا غبار عليه»[120]، ويُعقِّب بقوله : « ولعمري تلك هي الفوضى التي لا تقبلها لغة من اللغات فضلاً عن لغة منظمة دقيقة النظام كلغتنا العربية» [121].

فالتقديم عند إبراهيم أنيس ليس له أثر في المعنى الدلالي للتركيب، فهو ينكره ويستهجنه، أما ما ورد منه في القرآن الكريم، فإنما هو عنده لرعاية الفاصلة القرآنية ليس إلا .

كما أخذ بهذه الفكرة أحمد نصيف، فالتقديم عنده أيضاً يكون اقتضاء للسياق الموسيقي للجملة يقول: قد يقتضي هذا السياق الموسيقي أن يقدّم في أجزاء الجملة ويؤخر لتناسب السياق[122]، وقدّم نماذج من القرآن الكريم ليبين ذلك، كتقديم الجار والمجرور على الفعل في قوله تعالى : ﴿لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[123]، وذلك ليتناسب السياق الموسيقي، فالآية التي قبلها تنتهي بالفعل (تفعلون)، والآية التي بعدها تنتهي بالفعل (تعملون) .

---

[118] من أسرار اللغة : ٢٤٥ .

[119] سورة الأنعام : ٤٨ .

[120] من أسرار اللغة : ٣٣٤

[121] المصدر السابق الصفحة نفسها.

[122] ينظر : السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها، مجلة الآداب بالمستنصرية، العدد ٤، سنة ١٩٧٩ .

[123] سورة النحل : ٩٢ .

فمن أخذ بهذا الرأي من قدماء ومحدثين ينكر أن يكون التقديم في القرآن لغرض يتعلق بالمعنى، وإنما هو لرعاية الفاصلة والموسيقى، كما هو الحال في الشعر، ولكنَّ كلام الله ليس شعراً ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾[١٢٤]، فهذا الفهم للتقديم والتأخير يؤدي إلى إغفال المعنى المتحصَّل بالتقديم، ويكفي أن نعرض بعض الآيات القرآنية لنبين خطأ مذهب أنيس ومن حذا حذوه :

يقول تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[١٢٥].

وقال : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[١٢٦]

ففي الآية الأولى قدَّم رزق المخاطبين على رزق الأولاد، وذلك لأن الخطاب للفقراء بدليل قوله (من إملاق) فكان رزقهم عندهم أهم من رزق أولادهم، فقدَّم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم .

أما الآية الثانية فالخطاب فيها للأغنياء بدليل قوله (خشية إملاق) فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع بعد، وتخاف من وقوعه، فكان رزق أولاده هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل، فالأهم عندهم رزق أولادهم، فقدَّم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم[١٢٧] .

---

[١٢٤] سورة يس : ٦٩ .

[١٢٥] سورة الأنعام : ١٥١ .

[١٢٦] سورة الإسراء : ٣١.

[١٢٧] ينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي :٣/٢٨٥،و الجملة العربية تأليفها وأقسامها. فاضل السامرائي :٣٨- ٤٨، التعبير القرآني : ٤٨- ٦٥، البيان في روائع القرآن تمام حسان : ١: ٧٠ وما بعدها .

ومن الآيات التي ورد فيها تقديم وتأخير قوله تعالى : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[١٢٨]، إذ أخرت صلة الشهادة في الأولى وقُدِّمت في الثانية؛ لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الثاني اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم[١٢٩] .

وكما هو واضح نرى أنَّ التقديم في الآيات السابقة جاء لمعنى، إذ لو غيرنا موقع المُقدَّم لانحرف المعنى، ولما حصلنا على تلك الفائدة، ولو كان الأمر لا يعدو الموسيقى والفاصلة لما أثّر ذلك في المعنى، وفقدنا العنصر الموسيقي فقط، ثم إننا إذا تدبرنا الآيات المُتقدمة لا نجد للفاصلة أي نصيب في التقديم والتأخير، فالآية الأولى جاءت ضمن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[١٣٠]، وجاءت الثانية ضمن قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾[١٣١] .

فما ذهب إليه إبراهيم أنيس وغيره يؤدي إلى ضياع المعنى من أجل المحافظة على الشكل، لذا عاب ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) على الفراء (ت٢٠٧هـ) إهماله المعنى من أجل قوله بالفاصلة القرآنية، فالفراء في معرض تفسيره لقوله تعالى :﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[١٣٢]، فسَّر (جنتان) أنها جنة واحدة، ولكن رعاية الفاصلة اقتضت أن يكون هذا اللفظ مثنًّى .[١٣٣]

---

[١٢٨] سورة البقرة : ١٤٣.

[١٢٩] ينظر : الكشاف للزمخشري : ١/ ٣١٨ .

[١٣٠] سورة الأنعام : ١٥١

[١٣١] سورة الإسراء : ٣١ .

[١٣٢] سورة الرحمن : ٤٦ .

[١٣٣] ينظر : معاني القرآن للفراء : ١١٨/١ .

فأنكر ابن قتيبة ذلك وضاق به، لأنه يزيل المعنى من جهته، يقول : (وهذا من أعجب ما حمل عليه كتاب الله، ونحن نعوذ بالله من أن نتعسّف هذا التعسّف، ونجيز على الله – جل ثناؤه- الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية ... فأما أن يكون الله – عز وجل- وعد بجنتين فيجعلهما جنَّة واحدة من أجل رؤوس الآي فمعاذ الله !!)[١٣٤] .

خاتمة البحث :

وفي خاتمة هذا البحث أسجل أهم النتائج التي توصل إليها الباحث وهي كما يأتي :

١) يعدُّ سيبويه صاحب الريادة في بيان أثر التقديم والتأخير في المعنى وهو التقديم للأهمية والعناية ومن جاء بعده من النحاة سار على منواله .

٢) إنَّ اهتمام القدماء – قبل عبد القاهر الجرجاني – بأثر التقديم والأخير في المعنى لم يكن وافياً، فقصروا أثره على العناية والاهتمام بالمقدّم دون أن يبينوا سبب هذا الاهتمام .

٣) عبد القاهر الجرجاني يعود له الفضل الأكبر في اكتشاف أسرار التقديم والتأخير، وإليه يرجع الفضل في وضع قواعده وترسيخ أركانه وبيان أسراره ولطائفه، وتوسيع دائرة بحثه وتحويله إلى فن بلاغي ذي شأن في الدراسة البلاغية، بعد أن كان يدرس ضمن أبواب النحو، وبذلك فتح باباً واسعاً لمن بعده للتعرف إلى دقائقه وبيان أسراره البلاغية التي تكمن وراءه .

٤) يعتبر الزمخشري من أوائل المتأثرين بعبد القاهر الجرجاني، فكان (الكشاف) منبعاً ثرَّاً تزود منه السابقون لمعرفة أسرار هذا الفن الأصيل، ولا يزال منبعاً لمن يريد التزود ببلاغة التقديم والتأخير ومعرفة أسراره في القرآن الكريم .

٥) من المحدثين من ينكر أن يكون للتقديم والتأخير أثر في المعنى كإبراهيم أنيس وغيره، وإنما يُلجأ إليه لحاجة ملحّة في النثر، وهو مقبول في لغة الشعر، وأما وروده في القرآن فلرعاية الفاصلة والموسيقى، وهو رأي لم يسلّم به البحث وحاول تفنيده مستدلاً ببعض الآيات القرآنية مبيناً أثر التقديم والتأخير في معناها .

[١٣٤] تفسير غريب القرآن: ٤٤٠، وينظر : البرهان في علوم القرآن : ٦٥/١ .

٦) إنَّ دراسة موضوع التقديم والتأخير له أهمية كبرى في فهم بعض أسرار القرآن الكريم وبيان معانيه.

٧) التقديم والتأخير له أهمية كبيرة في النظرية التحويلية التوليدية الحديثة باعتباره عنصراً من عناصر التحويل عند د. خليل عمايرة وله أثر في المعنى الدلالي في الجملة .

مصادر البحث ومراجعه :

١) القرآن الكريم .

٢) أثر النحاة في البحث البلاغي : عبد القادر حسين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر – ١٩٧٠م .

٣) الأصول، دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، تمام حسان، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨م .

٤) إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (٤٠٣ هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر،١٩٦٣ م .

٥) إعراب القرآن (المنسوب خطأ إلى الزجاج في النسخة المطبوعة)، أبو الحسن علي بن الحسين الباقولي المعروف بجامع العلوم) ت ٥٤٣هـ)، تحقيق : إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م .

٦) الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)،: ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٢- ١٩٨٦ م .

٧) إفادة تقديم ماحقه التأخير بين الزمخشري وأبي حيان - دراسة تفسيرية مقارنة – للباحثين : منصور محمد أبو زينة، محمد رضا الحوري، بحث منشور في مجلة القصيم للعلوم الشرعية، المجلد الخامس العدد الأول .

٨) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لأبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، ط٦ – ١٩٨٠م .

٩) البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٩٢م .

١٠) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت – ١٩٨٢م .

١١) البلاغة عند السكاكي، ر : أحمد مطلوب، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٤م .

١٢) بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهره ٢٠٠٣ م .

١٣) البيان في روائع القرآن، الدكتور : تمام حسان، علم الكتب، مصر، ط٢ – ٢٠٠٠م .
١٤) تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، عمر الملا حويش، مطبعة الأمة، بغداد – ١٩٧٢م.
١٥) التعبير القرآني، الدكتور : فاضل السامرائي، دار عمار، عمان – الأردن، ١٩٩٨م .
١٦) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود محمد بن أحمد العمادي (ت ٩٨٢ هـ) المطبعة المصرية، ط ١، ١٩٢٨ م .
١٧) تفسير غريب القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٦٧هـ)، تحقيق : السيد أحمد صقر،دار الكتب العلمية، بيروت – ١٩٧٨ م .
١٨) تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل : عبد الله بن أحمد النسفي (ت ٧٠١ هـ)، المطبعة الأميرية – بولاق، مصر ١٩٣٦ م .
١٩) تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق : محمد خفاجي ومحمود فرج عقدة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر – ١٩٦٩ م .
٢٠) الجملة العربية تأليفها وأقسامها، د. فاضل السامرائي، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد - ١٩٩٨م .
٢١) التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٩٦.
٢٢) الجملة العربية تأليفها وأقسامها، لفاضل السامرائي، بغداد : منشورات المجمع العلمي - ١٩٩٨ م .
٢٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣ – ١٩٨٩م.
٢٤) الجمل في النحو، لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣١٠ هـ) تحقيق علي توفيق الحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة،١٩٨٢ م .
٢٥) الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق : محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ .

٢٦) الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري، فاضل السامرائي، دار التقدير للطباعة والنشر، ١٩٧٠ م .

٢٧) الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع في العلوم العربية، لأحمد بن الأمين الشنقيطي (ت١٣٣١هـ)، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ط١، ١٩٨١م .

٢٨) دلائل الإعجاز، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١ أو ٤٧٤ هـ)،تحقيق : محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت – ١٩٧٨م .

٢٩) دور الرتبة في الظاهرة النحوية، عزام محمد الشريدة، دار الفرقان للنشر والتوزيع – عمان،ط٢٠٠٤،١م .

٣٠) ديوان البحتري (الوليد بن عبيد ٢٨٤ هـ) – دار صادر - بيروت ١٩٨٧ م .

٣١) ديوان عمر بن أبي ربيعة = شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الأندلس، ط٤، ١٩٨٨م.

٣٢) ديوان النابغة الذبياني (زياد بن معاوية)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر – ١٩٧٧م .

٣٣) الرتبة النحوية في الجملة العربية المعاصرة : إبراهيم صالح الخلفات، دار الفرقان للتوزيع والنشر ط١، ٢٠٠٢م .

٣٤) السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها، أحمد نصيف (بحث منشور في مجلة الآداب المستنصرية، العدد ٤، سنة ١٩٧٩ .

٣٥) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لبهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني (ت ٧٦٩ هـ)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت : المكتبة العصرية _٢٠٠٢ م .

٣٦) شرح التصريح على التوضيح، لخالد بن عبد الله الأزهري (ت٩٠٥هـ)، وبهامشه حاشية يس بن زين الدين، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه) القاهرة، بدون تاريخ .

٣٧) شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت٤٢١هـ)، تحقيق : أحمد أمين، عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩١م .

٣٨) شروح سقط الزند، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا، وعبد الرحيم محمود وآخرون، القاهرة،١٩٨٧م .

٣٩) عبد القاهر الجرجاني والبلاغة العربية، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الهرم التجارية الكبرى، ط١، بدون تاريخ .

٤٠) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : شوقي ضيف، دار المعارف مصر - ط ٥ ١٩٦٥ م.

٤١) في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمايرة، عالم المعرفة، جدة – ١٩٨٤م .

٤٢) الكافية في النحو، شرح الإستراباذي (رضي الدين محمد بن الحسن)، دار الكتب العلمية، بيروت ط٣ – بدون تاريخ .

٤٣) كتاب سيبويه، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ)، تحقيق : عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ .

٤٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ .

٤٥) لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ .

٤٦) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ م .

٤٧) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٣٩ .

٤٨) المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، تحقيق علي النجدي ناصف، وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح شلبي، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط ٣- ١٩٩٩ .

٤٩) معاني القرآن، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م .

٥٠) من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصرية ، ط٥، ١٩٧٥م .

٥١) النحو العربي والدرس الحديث، د عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.